أبو بكر القاضي

إبراهيم عليه السلام وكلمات الابتلاء

د. أبوبكر القاضي

المجلس الأول: مع سيدنا إبراهيم عليه السلام

abobakrelkady AboBakr Elkady
www.abobakrelkady.net KonnashatElkady

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ثمّ أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدﷺ، وشر الأمور مُحدثاتها، وكل مُحدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالةٍ في النار، ثمّ أما بعد:

الله عزوجل هو العليم الحكيم، هوعزوجل العليم العالم العلّام، علم ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

علمه أحاط بالكليات، والجزئيات، والغيب، والشهادة، والماضي، والحاضر، والمستقبل.

هو عزوجل العليم، وهو عزوجل الحكيم، هو عزوجل لا يفعل شيئًا عبثًا، لا يظلم مثقال ذرة

{ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء:٤٠]

- أفعاله منزهة عن اللهو، والعبث، والنقص.
- أفعاله منزهة عن الظلم، والشر.

لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك" ليس في أسمائه شر، ولا في صفاته شر، ولا في أفعاله شر، بل أفعاله كلها خير ورحمة وعدل ومصلحة وحكمة.

علم الناس ذلك أم لم يعلموا، قال تعالى: { وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١٦]

الله العليم الحكيم اقتضى علمه وحكمته أن تكون الحياة الدنيا ميدانًا للابتلاء.

- ميدانًا للصراع بين الحق والباطل، والكفر والإيمان.
- ميدانًا للاختبار اختبار القلوب، اختبار معادن البشر.

قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُور} [الملك:١،٢]

جعل هذه الحياة الدنيا ميدان للابتلاء، وجعل الآخرة درجات ودركات يتفاوت فيها الناس على حسب ما يظهر ويتجلى من قلوبهم في هذا الابتلاء {انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} [الإسراء:٢١]

ومن حكمته ورحمته عزوجل أن كلما زادت درجة الابتلاء زادت درجة الاصطفاء، ولذلك قالﷺ: "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى المرء على قدر دينه، فإن كان في دينه شدة زيد في بلائه" [أحمد ابن حنبل]

إذًا البلاء ليس علامة إهانة، البلاء ليس علامة طرد أو إبعاد من الله عزوجل، بل البلاء علامة إكرام ورفعة عند الله عزوجل مع الصبر والاحتساب، مع الفهم عن الله عزوجل، مع حسن الظن بالله تبارك وتعالى.

نعم نحن نحتاج أن ننظر بعين الحكمة إلى هذا الوجود، وإلى هذا التدافع بين الحق والباطل، والكفر والإيمان، إلى هذا التدافع بين الخير والشر، بين الظلمات والنور؛ لنعلم أن الله عزوجل يستحق الحمد على ذلك {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الصف:٢]

كما أنه يستحق الحمد على جعل النور، يستحق الحمد على جعل الظلمات.

- لولا هذه الظلمات لما ظهر النور.
- لولا هذه الآلام وهذه الابتلاءات، لما ظهرت هذه العبودية من أوليائه وأصفيائه وأنبيائه يصطفي منهم عزوجل الأئمة عبر الزمان {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة:٢٤]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "إنما تنال الإمامة في الدين بالصبر واليقين" فعلى قدر هذا الابتلاء، وعلى قدر ما يتجلى من العبد في هذا الابتلاء من يقين بأسماء الله وصفاته ووعده ووعيده وخبره عزوجل، ثم صبر على مراد الله عزوجل، صبر على طاعة الله، صبر عن معصية

الله، صبر على أقدار الله المؤلمة على قدر ما يرتفع العبد في درجات الإمامة في الدين لذلك قيل للإمام الشافعي -رحمه الله-: "يبتلى المرء أم يُمكّن؟ قال: لا يُمكّن حتى يُبتلى"

- لا تمكين إلا بعد الابتلاء.
- لا تمكين إلا بعد التمحيص.
- لا تمكين إلا بعد الاصطفاء والاجتباء من الله تبارك وتعالى؛ لأن القضية ليست في الاستضعاف أو التمكين، إنما القضية في تحقيق العبودية لله إن كنت ممكنًا أو مستضعفًا مغيبًا في غيابات السجون، أو ممكنًا على أسرة الملوك.

المطلوب منك: أن تكون عبدًا، ولذلك نحن نحتاج أن نقف مع الإمام الخليل -عليه السلام- الذي ربط الله -عزوجل- إمامته بالابتلاء إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} [البقرة:١٢٤]

جاءت الإمامة في الحقيقة بعد الابتلاء الذي ترتب عليه الاصطفاء، والذي هذا الاصطفاء ترتب على إتمام العبودية في كل ابتلاء من الابتلاءات، في كل كلمة من كلمات الله الشرعية والكونية كان الابتلاء، وكان الوفاء من إبراهيم -عليه السلام- {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ} [النجم: ٣٧] ولذلك جعله الله -عزوجل إمامًا للناس، بل جعله الله تبارك وتعالى أُمة، أي إمامًا وزيادة.

إيمانه يساوي إيمان أمة جامعًا للفضائل، جامعًا لفضائل كثر في الناس جمعت فيه عليه السلام، ولذلك في هذه الحلقات سنقف سويًا وقفات مع قضية الابتلاء، وقصة إبراهيم.

قصة إبراهيم -عليه السلام- وكفاحه الطويل، وجهاده الطويل في الوفاء مع ربه بميثاق العبودية حتى اصطفاه الله عزوجل، وحتى مكن الله له تبارك وتعالى، وسنفهم أن التمكين ليس فقط هو التمكين العسكري، وإنما القضية أكبر من ذلك أن تمكن من القلوب، وأن يجعل الله لك لسان الصدق في الآخرين، وأن تكون إمامًا يُقتدى بك عبر العصور

{فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}
[الرعد:١٧]